حروف القرآن

﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

[فصلت : ٣٣]

قال : أريد أن نبدأ من البداية؛ من اللبنات الأولى فى إعجاز القرآن .

قلت : فإن لبنات القرآن الأولى هى حروفه فلنبدأ بها .

قال متعجباً : وهل فى الحروف إعجاز ؟! كنت أحسب اللبنة الأولى فى الإعجاز ستكون على الأقل الكلمة لا الحرف .

قلت : بل إن سر الإعجاز الأول فى الحروف .

قال : فكيف يكون للحرف سر فى الإعجاز والحروف فى الكلمة هى هى فى القرآن وفى غيره من الكلام والكلمات ؟ فلا أعرف أن القرآن أتى بحروف جديدة فى الكلمات .

وإنى قد أفهم أن فى اختيار الكلمات وتآلفها وإعادة تركيبها وصياغتها لتكون جملاً وعبارات وآيات غير مسبوقة وتركيباً فريداً لا يُقلَّد ما يعطى من إبداع المعنى وإحكام المبنى وإمتاع الوجدان وإقناع العقل والنفاذ فى النفس ما تقصر عن الوصول إليه مدارك البشر وما تعجز عن الإتيان به طاقاتهم . ولكنى لا أفهم كيف يكون قصورٌ عن الحروف، وإنما الكلمة واحدة من حروف لا تتغير لا فى القرآن ولا فى غيره .

قلت : تماماً كما أن لبنات أى بناء واحدة لا يرى أحد – إذا نظر إليها مفرقة – فرقاً بينها فى بناء وآخر . ومع ذلك فإن اختيار نوع اللبنة فى البناء وحجمها وترتيبها وإعادة تنسيقها وهندستها يعطيك من الفرق بين بناء وبناء ما بين بيوت الطين والتراب وبين الشاهقات وناطحات السحاب .

فاللبنات الصغيرة المتشابهة قد يرص بعضها رصاً فما تكاد تمنع عن صاحبها حراً ولا برداً، وأخرى تحكم إحكاماً فتعطيك سكينة وأماناً، وثالثة تنسق وتزخرف فتمنحك راحة وجمالاً، ورابعة تشاد وتشدد فتريك عظمة وجلالاً، وخامسة تجمع ذلك كله فتكون عجيبة من عجائب الدنيا .

قال : يبدو أنك كنت تريد دراسة الهندسة فلما فاتتك استعضت عن هندسة البنيان بهندسة البيان .

قلت مبتسماً: وكذلك الحرف فى القرآن؛ اختار له العليم الحكيم من الكلمات وصيغها ما يودع سر الإعجاز فيه وفيها. فكل حرف فى مكانه الدقيق الذى يبين من المعنى مالا يفى به غيره، ويهبك من التأثير فى عقلك ونفسك ما يخفق ويخبو إذا بدلته، ويمنحك من جمال النظم وتناسق الإيقاع والنظم ما يختل إذا أسقطته، ويجرى اللسان به فى مخرجه فى يسر بين إخوته. فاللسان يتدفق إليه فيه منه فى بساطة آسرة وسهولة ساحرة.

والأعجب أن يكون إعجاز الحرف وسره فى حذفه؛ فيزيد حذفه المعنى بياناً واللحن جمالاً والأثر اكتمالاً.

قال وهو يتنهد بارتياح: أرحتنى.

قلت: وراحتك هذه هى سر القرآن، فكلما أمعنت فيه نظراً ازددت به إيماناً؛ فنفسك وعقلك فى طريق واحد لا فى اتجاهين متنافرين.

فلنتأمل حروف القرآن لنرى كيف يكون فى الحروف واختيارها ما يكون إعجازاً تحسه ويمكنك بعقلك أن تكشف سره.

تثاءب قائلاً: قد مر الوقت سريعاً وسجى الليل ولا أحب أن أبدأ حديثاً كهذا إلا وأنا فى كامل يقظتى وأوج لياقتى، فسأودعك الآن إلى لقاء.

قلت: فإلى لقاء.

* * *

قلت: مرحى مرحى! تقرأ القرآن؟

قال: بل أتأمله وأتفحصه وأحاول أن أرى أين يكمن فيه سره.

قلت: وما هذا الرص من الكتب القابع أمامك؟ أقررت بيعها؟

قال: بل اشتريتها.

قلت: كل هذا؟!

قال: نعم. فإنى أجمع الكتب وأقرأ ما فيها وإن كان كثير منه عسيراً، ثم أتأمل الآيات فى ضوئه وأحاول رؤية ما فيها بنفسى.

قلت: هذا بديع! فلنكمل حديثنا عن الحروف لنرى كيف إعجازها.

قال: انتظر قليلاً وتمهل قبل أن تُوغل فى الحروف وأسرارها! هناك شئ لا أفهمه وتفكرت فيه طويلاً فلم أستطع الوقوف على سره.

قلت: ما هو؟

قال: الحروف المقطعة.

قلت: فى أوائل السور؟

قال: نعم. فإنها نبهتنى وأثارت عقلى فتفكرت فيها طويلاً.

قلت: وما الذى وصلت إليه فيها؟

قال: لم أصل إلى شئ. وكلما قلبتها من وجوهها زاد لى غموضها. فلا هى كلمات وجمل فى ترابط واتصال، ولا هى بالتى تعطى معنى هكذا وهى فى تقطع وانفصال.

قلت: وإذاً؟!

قال: وإذاً فإنها حيرتنى. وما لبث أن خفت صوته وقال فى حذر: وربما كانت هكذا لتهول على السامع والقارئ وتحيطه بأجواء من الغموض والطلاسم لتُظهر القرآن فى مظهر عميق مخيف.

قلت: هيه! أهذا من كلامك وعقلك أم مما قرأته فى الكتب؟!

قال: لن يفرق كثيراً أن يكون هذا أو ذاك. المهم...

قلت: فقل لى: وأنت تقرأ هذا الكلام الأعمى كصاحبه ثم تتأمل القرآن فى ضوئه - كما قلت - أيطمئن قلبك ويرضى عقلك وتصدقه؟

قال مبتسماً: حقاً! لا أصدق. ومع ذلك فأنا لا أفهم ولا تكتمل راحتى إلا بالفهم.

قلت: فهذا أمر يسير يا صديقى. فلنتأمل هذه الحروف لنرى أغامضة هى أم مبينة، وأهى طلاسم للغلق أم مفاتيح للفهم.

فقل لى: حين قرأت هذه الحروف أراعك شئ فى عددها أو صفاتها أو السور التى جاءت فيها؟

سكت قليلاً مطرقاً إلى الأرض ثم قال: قد نظرت إليها كلّ فى سورته ولم يدر بخلدى أن أجمعها كلها معاً لأنظر فيها مجتمعة، وما سبق إلى ظنى إلا أن الذى جاء منها فى أوائل السور إنما جاء اتفاقاً وعرضاً.

قلت: فإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً. فاخبرنى أولاً: ما هى هذه الحروف التى جاءت مقطعة فى أوائل السور؟

قال: انتظر. ثم أخذ يقلب فى المصحف ويقف عند الأوراق التى دسها ليميز بها الصفحات وهو يقول: الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون.

قلت: فكم حرف هذه؟

قال: أربعة عشر حرفاً.

قلت: ألم ينتبه عقلك إلى أن هذه هى نصف حروف الهجاء العربية بالضبط؟

قال: لا. على أنه ربما كانت هذه مصادفة.

قلت: فما رأيك إذا كانت هذه الحروف تحتوى على نصف الحروف المهموسة [1] فى لغة العرب وهى الصاد والكاف والهاء والسين والحاء؟

قال: فتلك مصادفة بعيدة. لكنها محتملة.

قلت: فإذا كان بها نصف الحروف الجهرية [2] أيضا وهى الألف واللام والميم والراء والعين والطاء والقاف والياء؟

---

(١) الهمس: هو جريان النفس عند النطق بحروفه، وحروفه عشرة وهى: الفاء - الحاء - الثاء - الهاء - السين - الشين - الخاء - الصاد - الكاف - التاء وهى المجموعة فى قول: فحثه شخص سكت.

(٢) الجهر: ضد الهمس، وهو انحباس النفس عند النطق بالحرف وحروفه هى الثمانية عشر الباقية من حروف الهجاء.

قال: فهذه مصادفة أبعد!

قلت: أما زلت ترى أنها مصادفة؟ فما تقول إذا علمت أن هذه الحروف المقطعة تحتوى أيضاً نصف الحروف الشديدة [١] وهى الألف والكاف والطاء والقاف، ونصف الحروف الرخوة [٢] وهى اللام والميم والراء والصاد والهاء والعين والسين والحاء والنون، ونصف الحروف المُطبقة [٣] وهى ....

قاطعنى قائلا: كفى كفى!

قلت: انتظر فقط! ونصف الحروف المنفتحة [٤] ونصف الحروف المستعلية [٥] ونصف الحروف المنخفضة [٦] ونصف حروف القلقلة [٧].

قال: قد سلمت قد سلمت! ليست مصادفة. ومع ذلك فأنا لا أفهم السر فى أن هذه الحروف المقطعة تأخذ من كل صفة نصف حروفها وتترك النصف الآخر.

قلت: فإن السر فى ذلك هو ما قلته أنت تواً.

قال: الألغاز ثانية.

---

(١) الشدة: هى انحباس الصوت عند النطق بالحرف، وحروفها ثمانية هى: الهمزة – الجيم – الدال – القاف – الطاء – الباء – الكاف – التاء.

(٢) الرخاوة: ضد الشدة وهى جريان الصوت عند النطق بالحرف.

(٣) الإطباق: هو إطباق اللسان والشفة عند النطق بالحرف، وحروفه: الصاد – الضاد – الطاء – الظاء.

(٤) الانفتاح: ضد الإطباق وهو خروج الحرف من غير إطباق بين اللسان والشفة، وحروفه الأربعة والعشرون الباقية.

(٥) الاستعلاء: هو ارتفاع اللسان إلى الحنك الأعلى عند النطق بالحرف، وحروفه سبعة وهى: الخاء – الصاد – الضاد – الغين – الطاء – القاف – الظاء.

(٦) الانخفاض أو الاستفال: ضد الاستعلاء وهو انخفاض اللسان عند النطق بالحرف، وحروفه الباقية من حروف الهجاء.

(٧) القلقلة: هى اضطراب اللسان عند النطق بالحرف حتى يسمع له نبرة قوية، وحروفه خمسة: القاف – الطاء – الباء – الجيم – الدال.

قلت: فالسر فى هذا التنصيف واحتواء هذه الحروف نصف حروف اللغة العربية على أى وجه من الوجوه هو إثارة العقل وتنبيهه.

أولاً: إلى أن هذه الحروف لم تأت هكذا مصادفة عارضة واتفاقاً، وأنها إنما جاءت إحكاماً وقصداً واتساقاً.

وثانياً: إلى أنه لا يمكن لبشر أن يكون أتى بها على هذا الميزان الدقيق ومن أى وجه نظرت إليها، وهى بعدُ متناثرة فى سور القرآن ونزلت نجوماً مفرقة. ولن يكون هذا البشر - إن وجد - محمداً عليه الصلاة والسلام، وهو الأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب ولا يعرف الحساب والعد.

قال: إن عبارتك أغلقت نوافذ الشك وفتحت لى أبوابه. فإذا كان محمد عليه الصلاة والسلام لا يمكنه أن يأتى بهذه الحروف على مثل هذا الميزان الدقيق، فما الذى يمنع أن تكون بشرية الوضع والذى وضعها قارئ كاتب، عادٌّ حاسب؟.

قلت: وهذه أيضا مستحيلة.

قال: مستحيلة؟! قل صعبة فأوافقك. فما الذى يمنع بشراً أن يأتى بالحروف كلها ويختار منها نصفها، ويختار هذا النصف محتوياً نصف الحروف من كل صفة؟

قد تكون عملية شاقة ذهنياً ولكنها ممكنة بالتبديل والتوفيق.

قلت مبتسماً: ولا حتى بالتبديل والتوفيق. لأنه لكى يوجد هذا البشر الخارق لا بد أن تكون له القدرة لا على هذا الحساب المعقد والتوازن الدقيق فقط، ولكن على النفاذ فى غيوم القرون واجتياز حجاب الزمان.

قال: لا أفهم.

قلت: ستفهم حين تعلم أن إحصاء حروف العربية ومعرفة مخارجها وترتيب صفاتها لم يحدث إلا بعد قرون طوال من عصر نزول القرآن، وخلال زمن

ممتد وعلى يد كثرة كاثرة من العلماء أذهبوا أعمارهم وأفنوا أقلامهم فى تتبع حروف العربية واستقرائها وتحديد مخارجها وصفاتها؛ يستدرك اللاحق منهم ما فات السابق، ويأتى المتأخر بما لم ينتبه إليه المتقدم حتى أتموا معرفة بناء اللسان العربى وإحصاء حروفه ومخارجه وصفاته على ما خُلقت عليه.

قال فى ذهول: أتعنى أن هذه الحروف المقطعة قد جاء فيها نصف الحروف من كل صفة من صفات اللسان العربى قبل أن توجد هذه الصفات نفسها؟!!

قلت: نعم! والأدق أنها جاءت هكذا قبل أن تُعرف هذه الصفات ويُهتدى إلى تصنيفها.

فتأمل هذه الحروف وقل لى: ألا تشير لك الآن أنه لا يمكن لأحد أن يأتى بها على هذا الميزان الدقيق إلا أن يكون عالماً باللسان وبنيته، والحرف وصفته، وكل مخرج على دقته؟

قال: ماذا أقول؟ فهل يمكن لأحد أن يرتب شيئاً ويضع له مكانه ويجعله على ميزان دقيق وكأنه يراه بين يديه يصنفه ويختار منه قبل أن يوجد إلا من لا يحد علمه زمان ولا تقاس قدرته بنقص الإنسان؟

قلت: إذاً فهو الله عز وجل؟!

قال: آمنت بالله.

ولكن قل لى: أنا الآن أفهم أن هذا التوزيع الدقيق لهذه الحروف المقطعة إنما كان لينفى عنها العشوائية والمصادفة العارضة، ويشير إلى إحكامها ودقة نظامها وقصور قدرة البشر عنها، ولكن إلام تشير هى نفسها، وما سر وجودها فى أوائل سورها؟

قلت: فهذه تحتاج إلى تمهل وتدبر.

فانظر عندك وقل لى: السور التسع والعشرون التى جاءت فيها هذه الحروف المقطعة أمكية هى أم مدنية.

قال: انتظرنى قليلاً، وأخذ يقلب المصحف فى مكان الوريقات ثم قال: كلها مكية إلا البقرة وآل عمران والرعد فهى مدنية.

قلت: إذاً فمعظمها مكية. حتى السور الثلاث التى ذكرت فإنها من أوائل ما نزل بالمدينة، فيمكن ان نقول إنها خاتمة سور الحروف المقطعة.

قال: فليكن! هى خاتمتها.

قلت: إذا فجُل هذه الحروف فى سورها إنما جاءت فى أتون المعركة المحتدمة بين الإسلام والكفر فى مكة، وفى أوج عناد المشركين وتكذيبهم بالقرآن؟

قال: نعم.

قلت: ومن ثَم فهى قد جاءت فى ذروة تحدى القرآن وإهاجته لهم، وفى قمة إثبات إعجازه وقصورهم.

قال: وهذه أيضاً نعم. وما زلت لا أفهم ما هى العلاقة بين هذه الحروف وبين التحدى والإعجاز؟

قلت: نسيت ما قلناه.

قال: وكيف أنسى وأنا أسجل؟! فأى ما قلناه تقصد؟

قلت: مادة القرآن.

قال: آه!

قلت: فإن الله قد وضع لهم هذه الحروف المقطعة فى أوائل السور التى يتحداهم فيها ويصمهم بعجزهم وإعجاز القرآن لهم ليقول لهم: إن هذا القرآن مؤلف من هذه الحروف التى كحروفكم ويتألف منها كلامكم. فهى مادة فى أيديكم وطوع ألسنتكم، فإن استطعتم فألفوا بينها مثل القرآن وسوره، فإن عجزتم فاعلموا أن سر الحروف فى الذى ألف بينها واختارها واختار لها أماكنها.

ثم ألا ترى أن تذكيرهم بهذه الحروف ونصبها أمام عيونهم وهى مادة الكلام أبلغ لهم فى التحدى والإهاجة وإثبات إعجاز القرآن. فهى كعلم المنتصر المرفوع فوق عاصمة الخصم إثباتاً لعجزه ورمزاً لقهره.

قال: واى علم والحروف مقر دولتهم وحصن عزتهم!

قلت: ورفعاً لعلم النصر إلى عنان السماء حتى يراه القاصى مع الدانى، فإنه ما من سورة جاءت فيها هذه الحروف المقطعة إلا وجاء فيها ذكر القرآن بعدها والانتصار له أو التحدى به. فيضع القرآن بذلك من ينظر إليه أمامه وأمام العرب وأمام هذه الحروف، فيحكم والخصمان حاضران والشاهد موجود!

قال: فكأنها محاكمة منصوبة وهذه الحروف هى الدليل والشهود؟

قلت: نعم. فعليك بالدليل والشاهد، وعلىَّ بما يدل عليه ويشهد له.

قال وهو يفتح المصحف عند أول ورقة: ﴿ الٓمٓ ﴾. البقرة.

قلت: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢]

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤]

قال: ﴿ الٓمٓ ﴾ [آل عمران]

قلت: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ [آل عمران: ٢-٣]

قال: ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ [الأعراف]

قلت: ﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٢]

قال: ﴿ الٓرٰ ﴾ [يونس]

قلت: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ [يونس: ١]

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يونس: ٣٨]

قال: ﴿ الٓر ﴾ [هود]

قلت: ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١]

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [هود: ١٣]

قال: ﴿ الٓر ﴾ [يوسف]

قلت: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ [يوسف: ١]

﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١]

قال: ﴿ الٓمٓر ﴾ [الرعد]

قلت: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ ﴾ [الرعد: ١]

قال: ﴿ الٓر ﴾ [إبراهيم]

قلت: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١]

قال: ﴿ الٓر ﴾ [الحجر]

قلت: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر: ١]

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]

قال: ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ [مريم]

قلت: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ ﴾ [مريم: ١٦]

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [مريم: ٩٧]

قال: ﴿ طه ﴾

قلت: ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ * إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ * تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴾ [طه: ٢-٤]

قال: ﴿ طسَمَ ﴾ [الشعراء]

قلت: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ [الشعراء: ٢]

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥]

قال: ﴿ طسّ ﴾ [النمل]

قلت: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل: ١]

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ [النمل: ٩٣]

قال: ﴿ طسَمَ ﴾ [القصص]

قلت: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ [القصص: ٢]

﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص: ٨٦]

قال: ﴿ الٓمٓ ﴾ [العنكبوت]

قلت: ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨]

قال: ﴿ الٓمٓ ﴾ [الروم]

قلت: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الروم: ٥٨]

قال: ﴿ الٓمٓ ﴾ [لقمان]

قلت: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ [لقمان: ٢]

قال: ﴿ الٓمٓ ﴾ [السجدة]

قلت: ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ [السجدة: ٢-٣]

قال: ﴿ يسٓ ﴾ [يس: ١]

قلت: ﴿ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ [يس: ٢]

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس: ٦٩]

قال: ﴿ صٓ ﴾

قلت: ﴿ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ [ص: ١]

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩]

قال: ﴿ حمٓ ﴾ [غافر]

قلت: ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [غافر: ٢]

﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ ﴾ [غافر: ٤]

قال: ﴿ حمٓ ﴾ [فصلت]

قلت: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: ٢-٣]

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢]

قال: ﴿ حمٓ * عٓسٓقٓ ﴾ [الشورى]

قلت: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧]

﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾ [الشورى: ١٧]

قال: ﴿ حمٓ ﴾ [الزخرف]

قلت: ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

[الزخرف: ٢-٣]

قال: ﴿ حمٓ ﴾ [الدخان]

قلت: ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾

[الدخان: ٢-٣]

قال: ﴿ حمٓ ﴾ [الجاثية]

قلت: ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [الجاثية: ٢]، ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٦]

قال: ﴿ حمٓ ﴾ [الأحقاف]

قلت: ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [الأحقاف: ٢]، ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾

[الأحقاف: ١٢]

قال: ﴿ قٓ ﴾

قلت: ﴿ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ [ق: ١]

﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق: ٤٥]

قال: ﴿ نٓ ﴾

قلت: ﴿ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾

[القلم: ١-٢]

﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[القلم: ٤٤]

﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [القلم: ٥٢]

قال وهو يضع آخر ورقة فى مكانها ويغلق المصحف: يبدو أن كلامك صحيح. فما من سورة جاءت فى أوائلها هذه الحروف إلا وذكر بعدها مباشرة القرآن وتنزيهه والإشارة إلى علوه ورفعته.

قلت: وحتى السور الثلاث التى لم يذكر الكتاب والقرآن فيها بعد هذه الحروف مباشرة، وهى مريم والعنكبوت والروم، فإن التحدى بالقرآن وتبكيت منكريه مبثوث فى السورة ينبهك إليه فى موضعه منها العلم المنصوب فى أولها.

قال: قد نبهتنى الآن ولم أنتبه إليه من قبل أن هذه الحروف تنطق بأسمائها، فإذا كان المقصود هو تنبيه العرب إلى أن القرآن مؤلف من حروف كحروفهم ليكون أمعن فى التحدى وأبين للإعجاز، فلماذا جاءت بأسمائها: ألف ولام وميم وكاف وها ويا وعين وصاد، ولم تأت بذواتها فتكون أ ل م ، ك هـ ى ، ع ص ، ح م؟

قلت: ففى هذا العدول إشارة وسر آخر.

قال: سر آخر ؟! يظهر أن هذه الحروف التى رأيتها لأول وهلة غامضة هى ينبوع للإشارات والأسرار!

قلت: والسر هو تنبيه أنظار العرب وعقولهم وكل من يأتى بعدهم إلى أن هذه الحروف فى أوائل السور هى بأسمائها تماماً كما تنبه عقلك.

قال: فهب أنهم تنبهوا إلى ذلك ، وها أنا قد تنبهت ، ومع ذلك لا أفهم السر فى أن تكون بأسمائها .

قلت: السر أن النبى عليه الصلاة والسلام كان أمياً فهو . . .

ابتسم فجأة ثم قاطعنى قائلاً: انتظر! فقد ومض فى عقلى معناها. هو عليه الصلاة والسلام كان أمياً، فلا يمكن أن يعرف أسماء الحروف. وإذاً فلا يمكن أن يكون هو الذى أتى بها.

قلت: بارك الله لنا فى عقلك. فها هو قد فهم الإشارة فى أسمائها، تماماً كما فهمها العرب وهم يعلمون أنه عليه الصلاة والسلام لم يمسك ورقة ولا قلماً فى حياته ولم يجلس إلى معلم يعلمه وهو بين أيديهم وأمام سمعهم وبصرهم.

قال: فإذا كان عليه الصلاة والسلام بين أيديهم وأمام سمعهم وبصرهم وهم يعلمون علم اليقين أنه لم يعلمه بشر: ففى هذه الحروف أيضا إشارة إلى نبوة النبى عليه الصلاة والسلام ودليل على أن علمه إنما جاء من مصدر غير بشرى.

قلت: فها أنت قد فطنت إلى إشارة ومعنى آخر فيها. فكأن هذه الحروف تقول لهم: إذا رأيتم أسمائى وسمعتم الذى يقولها لكم هو محمد الأمى، فتيقنوا أنى لست من عنده، فهو لا يعرفنى وإنما عرَّفه بى وعلمه إياى العليم الخبير.

قال: حقاً إن هذه الحروف لعجيبة!

قلت: والآن ما رأيك فيها: أغامضة هى أم مبينة؟ طلاسم أم مفاتح؟

وأهى مصادفة واتفاق، أم إعجاز وإحكام واتساق؟

قال: وهل بعد هذه الخبايا التى تطل منها؛ كلما أديرت على وجه كشف عن كنز مخبوء فيه اتساق وإعجاز؟!

قلت: وأما نكتة إعجازها أنك لو أتيت بهذه الحروف لتؤلف منها جملة مبينة تجمعها لكانت: نص حكيم قاطع له سر!

* * *

قال وهو يجلس: تعرف! إن هذه الحروف مملوءة بالأسرار!

قلت: أما زلت تفكر فيها؟

قال: إنما كنت أسجل ما دار بيننا عنها وأقلب وجوه النظر فيه وأتأمل هذه الحروف فى ضوئه وضوء ما أقرأه.

قلت: وهل اطمأن قلبك الآن تماماً؟

قال: إنها لعجيبة الشأن! فهى تثير الذهن وتنبهه، وتجذب الأذن وتسلبها، وفى تنصيفها الدقيق إيحاء بمصدرها الإلهى. وفيها الإعجاز وعَلَم منصوب

للتحدى، ودليل النبوة فى أسمائها. ثم هذه الجملة التى تتكون بها. فكان هذه الحروف العجيبة جوهرة تشع من كل وجه.

قلت متبسماً: والأهم أن قد عرفت كم هى مبينة ومعجزة، وأن ليس فى القرآن حرف إلا وقد أعد له موضعه ومُكِّن فيه تمكيناً فلا يمكنك أن تستغنى عنه ولا أن تستبدل به غيره فيعطيك معناه، فلو أنك - مثلاً - نزعت واحداً من هذه الحروف المقطعة ووضعت آخر مكانه لكان أقل ما يحدث أن يختل التنصيف الدقيق التى هى عليه ويضيع السر المخبوء فيه ولا .....

قاطعنى قائلاً: قف! قف! فأنا الآن أريد حل هذا اللغز.

قلت: أى لغز؟!

قال: هذا اللغز الذى ذكرتنى به هذه الموازنة الدقيقة والحساب المعقد الذى أتى بنصف حروف كل صفة فى لسان العرب فى نصف حروف لسان العرب.

قلت: وما علاقة التوازن والحساب بالألغاز؟

قال: خذ فاقرأ! ها هنا من سورة فصلت:

قلت: ﴿ **قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾ [فصلت: ٩-١٢]

قال: كفى! كفى!

قلت: ها قد قرأت. فماذا بعد؟!

قال: ماذا بعد؟! احسب معى: ﴿ **خَلَقَ الأَرْضَ فِي.....** ﴾.

قلت : يومين.

قال : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي..... ﴾.

قلت : أربعة أيام.

قال : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي ..... ﴾

قلت : يومين . ها!

قال : ها! أتراوغنى؟! كم يكون جمع هذه الأعداد؟

قلت : ثمانية!

قال : وتقولها هكذا ببساطة وكأنه لا شئ فيها.

قلت : فماذا تريدنى أن أفعل؟!

قال : يا مثبت العقل! أليس القرآن فى مواضع عدة يقول : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [يونس : ٣]

قلت : بلى!

قال : فكيف يقول فى مواضع عدة إنها ستة أيام، ثم يأتى بها مفصلة فيكون مجموعها ثمانية؟!

أتضحك؟!

قلت : يا قليل العقل! أتظن الذى يأتى بمثل هذا الحساب المعقد والتوازن الدقيق يمكن أن يخطئ فى حساب بضعة أيام؟!

تراجع إلى الوراء فى هدوء فقلت : الأمر أيسر كثيراً مما تظن وليس فيه لغز ولا حتى رائحة لغز.

وضع أصابعه فى شعره وأخذ يعبث فيه مفكراً ثم قال : ولا حتى رائحة اللغز!!

قلت : قل لى : ماذا تعنى الواو؟

قال : العطف .

قلت : فقط؟!

قال : نعم . فقط !

قلت : إذاً لو قلت : جاء محمد وعلى فإنك لا تعنى بذلك ترتيباً ولا وصفاً لكيفية المجئ ولا تتابعه، فليس الترتيب أو التتابع هو القضية أو الشئ الذى تريد أن تخبر عنه .

قال : هذا صحيح، فقد يكون محمد جاء أولاً أو على أو جاءا معاً فى وقت واحد، ولكن ما علاقة هذا بالآيات وخلق السموات والأرض والحساب؟

قلت : معنى الواو هذا هو حل اللغز العويص الذى صنعه عقلك .

قال : كيف؟

قلت : إنك أتيت للآيات وأعطيت الواو معنى من عندك ليس لها فى الحقيقة، وهو معنى ترتيب مراحل الخلق المذكورة فى الآيات وتعاقبها .

قال : آه!

قلت : فانتهيت بذلك إلى أن جمعت الأيام المذكورة فى الآيات جمعاً حسابياً : يومان + أربعة + يومان لتصبح ثمانية .

قال : ما زلت لا أفهم .

قلت : الواو – كما قلت أنت – تعطى معنى العطف فقط دون الترتيب والتعاقب، فوجودها يعنى أن الله ﴿ **خَلَقَ الأَرْضَ** ﴾ ، ﴿ **وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا** ﴾ و ﴿ **قَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ** ﴾ . ولأن الواو ليس لها إلا معنى العطف فقط، فقد تكون هذه المراحل متزامنة أو متعاقبة أو متداخلة بعضها فى البعض الآخر . ليست هذه القضية التى تخبرك عنها الآيات .

قال : إذاً!

قلت : إذاً افترض عقلك المحلق أن هذه المراحل منفصلة متعاقبة من عنده دون أن يوجد فى الآيات ما يعطى هذا المعنى.

وإذاً حل لغزك العويص هو أن الله عز وجل خلق الأرض فى الوقت الذى جعل فيه الرواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها، فاستغرق الخلق يومين واستغرق وضع الرواسى والبركة وتقدير الأوقات أربعة أيام من أيام الله. وهذا متداخل بذاك.

قال : فوضع الرواسى والبركة والتقدير بدأ مع الخلق وانتهى بعده بيومين، ثم جاء خلق السموات فى يومين.

قلت : فيكون المجموع ستة أيام وتُفك عقدة لغزك العويص.

قال : يالغفلتى! حقاً إن الأمر يسير هين. الواو لا تعنى ترتيباً ولا تتابعاً، فقط العطف المجرد.

قلت : ألم أقل لك من قبل إن كل حرف فى القرآن فى موضع لا يمكنك أن تغيره أو تسقطه وإلا اختل كل شئ ووجدت نفسك فى متاهة وعماء.

فلو وضعت أى حرف مكان الواو كالفاء أو ثم، لتضاربت الآيات التى لا اتساق بينها ولا إحكام إلا بهذه الواو.

* * *

قال : إنك طالما قلت لى : إنه ما من حرف فى القرآن يصلح غيره مكانه معنى وإبانة وأثراً ونظماً.

قلت : نعم.

قال : ومع ذلك فإنى وأنا اقرأ وأتأمل رأيت من الحروف ما لو استبدل به غيره لم يفرق المعنى ولم يختل المبنى.

قلت : فأنا بالقرآن أوثق منى بتأملك، فقل لى : ماذا وجدت؟

قال: إن القرآن يقول على لسان فرعون فى السحرة: ﴿ **وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ** ﴾ [طه: ٧١]

فلو تأملت ﴿ **فِي** ﴾ هذه ثم نزعتها ووضعت مكانها على لتكون: «ولأصلبنكم على جذوع النخل» لما كان هناك فرق. فالصلب هو الصلب لم يتغير، والنخل هو النخل لم يتبدل، والسحرة هم هم مصلوبون بـ«على» أو ﴿ **فِي** ﴾.

قلت: أتعرف من الذى يتغير ويتبدل لو وضعت «على» مكان ﴿ **فِي** ﴾ كما تريد؟

قال: من؟! وهل ثَم (من) آخر غير المصلوبين؟

قلت: نعم. فرعون.

قال: وما شأن ﴿ **فِي** ﴾ أو «على» بفرعون؟

قلت: أليس هو الآمر بالصلب؟

فقل لى: هؤلاء السحرة لِمَ أمر فرعون بصلبهم؟

قال: لأنه جمعهم ليستعين بهم فى مواجهة معجزة موسى عليه السلام كما يقول القرآن: ﴿ **قَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ** ﴾ [يونس: ٧٩]

قلت: فهل أعانوه بعد أن جمعهم كما كان يرجو؟

قال: لا. بل خذلوه وآمنوا بموسى: ﴿ **فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ** ﴾ [الشعراء: ٤٦ - ٤٨]

قلت: ولم يخذلوه فقط وهو الذى كان يعدهم لنصره وبعث حاشرين لجمعهم، بل ناصبوه العداء فى شموخ وعزة وتحد: ﴿ **فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ** ﴾ [طه: ٧٢]؛ فكأنهم يقولون له: أعلى ما فى خيلك اركبه، وهو الذى كان يقول فيُسمع ويستخف فيطاع وشعاره: ﴿ **أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ** ﴾ [النازعات: ٢٤].

فتأمل هذا الذى تراه وقل لى: ما تكون نفس الرجل وما يكون بداخله إزاء هؤلاء الذين خذلوه بعد أن سعى فى جمعهم، وتحدوه على الملأ بعد أن كان يرجو نصرهم، وأذلوا كبرياءه فى قومه بكفرهم به وإيمانهم؟

قال: لا بد أنه كان حانقاً يكاد ينفجر من الغيظ بعد أن هُزم على الملأ من مكمن قوته، ومرغت فى التراب عزته. ولو استطاع لأنشب أظافره فى أعناقهم، ومزق بأسنانه أجسادهم.

قلت: فهذا سر ﴿فِي﴾ الذى تبوح به ولا يكشفه غيرها.

فهذا الحرف يدلك على أن أجسام السحرة لم تربط وتعلق على جذوع النخل فقط، ولكنها شدت شداً وثيقاً حتى غارت الحبال فى أجسامهم وصيرتهم وجذوع النخل شيئاً واحداً لا مجرد شئ معلق على شئ.

قال: فما علاقة ذلك بغيظ فرعون؟

قلت: إن القرآن بـ ﴿فِي﴾ هذه ومعناها هذا يكشف من نفسية الفرعون ما يختفى ويضيع لو لم تكن موجودة، فهو مغتاظ حانق منتفخ الأوداج محمر العينين يكاد يتميز من الغضب ويريد شيئاً يُخرج فيه غيظه ويُفرغ فيه غضبه، فلم يجد أمامه إلا إصدار هذا الأمر. فقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ هو أمر ومنفذ لتفريغ الغيظ والغضب.

ولو أردت تمثيل فرعون وهو يصدر هذا الأمر لما كان إلا رجلا يجز على أسنانه من الغيظ ويضم قبضته فى عنف وكأنه يضمها على رقاب السحرة حتى تتغرس أظافره فى يده فتدميها، ويهتز كله من التوتر ويصدر أصواتا مدمدمة، فيكون أمره عندها صورة من نفسه. فهو يأمر بتصليبهم لا صلبهم، فكأنه من شدة غيظه يريد صلبهم عشرات ومئات المرات بما يكفى لتفريغ غضبه. ثم وهو يأمر بتصليبهم فى النخل كأنه وهو يصدر الأمر بـ ﴿فِي﴾ يرى الحبال فى يده هو، وهو الذى يشدها ويخرج كل غيظه فى أطرافها، فلا تهدأ ثورته الجامحة إلا

وقد غيبتهم الحبال التى يسكنها غيظه ويُفرغ فى أطرافها طاقة غضبه فى جذوع النخل فلا يبقى لهم أثر.

قال: ياه! كل هذه المعانى والدلالات والإيحاءات من حرف واحد!!

قلت: وأما «على» فإنها لو كانت فى هذا الموضع لما زادت على أن تجعلك ترى فرعون يصدر أمراً كأى أمر بصلب أو قتل مجموعة من الرجال ارتكبوا جناية، ولا يلزم أن يكون على معرفة بهم، فانفعاله ومشاعره ونفسه ليست ذات صفة فى الأمر الذى أصدره. فبـ«على» يكون الأمر عادياً بعقوبة عادية ربما كانت تطبق عليهم وعلى غيرهم.

ولو تمثلت الفرعون يصدر الأمر بـ«على» لكان على خلاف الصورة الأولى: حاكم ظالم يجلس على عرشه وتعرض عليه قضية ضمن أخريات، فلا تمس نفسه وإن كانت تمس حكمه، فيصدر فيها أمراً كغيره من الأوامر فى غيرها من القضايا. وربما تصورته يأكل أو يشرب وهو يلهو بين ندمائه ويقول فى لامبالاة: اصلبوهم على جذوع النخل. ثم ينسى الأمر كغيره من الطغاة.

قال وهو يعبث بأنامله فى شعره: حقاً إن الصورة تغيرت تماماً فما بين ﴿فِي﴾ و«على» نفس ونفس، وأمر وأمر، وقضية وقضية.

قلت: أرأيت كيف دقة ميزان القرآن المعجز، وحرف يضعه القرآن فى الموضع فيعطيك صورة نفسية كاملة تحتاج فى وضعها إلى عشرات السطور وفى تصورها إلى مشاهد ومواقف وشخصيات وتفاعلات؟

قال: بل قل إنها تحتاج قبل كل هذا إلى خبير نفسى.

قلت: أتعرف أن ﴿فِي﴾ هنا لها سر آخر.

قال: وهل بقى فيها أسرار؟

قلت: نعم فيها. فلو نطقت حرفيها لجاء الصوت الخارج كدمدمة الغيظ وزمجرة الغضب.

قال وهو يجز على أسنانه: فى ى ى.

قلت: أرأيت كيف تخرج ﴿فِي﴾ وأنت تجز على أسنانك فيعطيك صوتها صوت الغضب، وجزك على أسنانك وتوتر عضلات الفك وتقلصها بهذا الجز إحساس الغيظ وصورته. ومن تقارب الشفتين فى الفاء مع الصوت المضغوط القادم من أعماق الجوف فى الياء ماراً بين الأسنان المغلقة تسمع وترى الكمد الكامن فى أعماق فرعون والضيق الذى يتدفق من داخله، فلا يجد وسيلة يشفى بها غليله إلا أن يمزق الصوت بأسنانه ويخنقه بحنجرته.

قال: إن الإحساس الذى تقذفه فى نفسى ﴿فِي﴾ هذه وأنا أتأملها الآن وأراها بوجدانى ونفسى إلى جوار عقلى ليجعلنى أرى فرعون وكأنه قنبلة لو امتلكت أن تنفجر لانفجرت.

قلت: وأما «على»، فلو نطقتها لرأيت حروفها تخرج والحنجرة متسعة والشفتان مفتوحتين والأسنان متباعدة وعضلات الوجه منبسطة، فيعطيك مرور الهواء وانفتاح الفم على آخره وارتخاء العضلات شعوراً بالراحة لا بالضيق والكمد، فتكون «على» عندها نشازاً فى النظم وفى عدم تلاؤم صوتها مع صوت النفس بعد تنافرها مع المعنى.

قال: يا لها من معجزة! فكأن الحرف يعطى الدلالات النفسية والانفعالية بمعناه ثم يؤكدها بالصوت الذى يمثله وحركة الأسنان والفم التى تصاحبه.

إن عقلى يكاد يذهل من هذا التناسق الخارق بين معنى الحرف وصوته وطريقة نطقه. ثم بين هذا كله وبين مكانه فى الآية.

قلت: فهل يمكن لحرف أن يوجد وفيه كل هذا التناسق والتجانس والتوازن الدقيق كأنه فُصِّل على مكانه وفصل مكانه عليه إلا وهو معجزة من رب الحروف وخالق اللسان ومقلب النفوس؟

وما لبث أن قام ماشياً وسلم على وهو يردد هامساً: نص حكيم قاطع له سر!!

* * *

قلت: ماذا تفعل؟

قال: غارق فى الحروف أبحث عن أسرارها.

قلت: فهماً أم ريبة؟

قال: وهل بعد عجائب ﴿ فِي ﴾ ريبة؟!

قلت: إذاً فقد تأكدت واطمأن قلبك إلى أن القرآن لا يضع حرفاً إلا فى مكانه، بل فى قراره المكين، فلا يمكن أن تنزعه ولا تضع آخر مكانه فيقوم مقامه.

قال: نعم. ولكن .....

قلت: ماذا ولكن؟!

قال: انظر. ثم أخرج ورقة مطوية من بطن الكتاب الضخم الموضوع أمامه وفردها.

قلت: ما هذا؟ وما هذه؟

قال: هذا المعجم المفهرس لألفاظ القرآن. وهذه آيات استخرجتها.

قلت: ماذا تريد منها؟

قال: أرى القرآن تكون فيه الجملتان أو الآيتان متشابهتين بل متطابقتين فى كل كلماتهما ثم يضع حرفاً فى واحدة وآخر فى أخرى.

قلت: وبعد؟!

قال: وبعدُ فقد أمسكت الآيات وقلبتها علّى أصل إلى السر فى أن يكون حرف هنا وآخر هناك والآية تكاد تكون هى هى، فلا المعنى يختلف بهذا الحرف ولا البناء يهتز بذاك.

وكيف يختلف أو يهتز والقرآن نفسه استخدم هذا مرة وذاك مرة؟ فهما لا بد متماثلان. وبعد طول عناء لم أهتد إلى شئ إلا أن يكون ذلك للتنويع.

قلت: ثق أولاً أن القرآن لا يضع حرفاً فى مكان إلا وفى الحرف معنى لا يعطيه أبداً غيره. فهناك فرق بينهما لا محالة.

قال: وثانياً؟

قلت: وثانياً: الفرق فقط يحتاج لتدبر بميزان حساس كميزان الذهب ليريك بعد ما بين حرف وحرف.

وثالثاً: من لا يملك الميزان الحساس الذى يعرف به ما بين حرف وحرف فيدعى أنهما سواء هو كمن يزن الذهب بميزان الطماطم فيستوى عنده منه الجرام والاثنين والعشرة والمائة، ثم يحمل الخطأ على الميزان أو على الموزون بدلاً من عقله الذى اختار للموزون مالا يوزن به.

قال: هيا أكمل! ورابعاً.

قلت: ورابعاً: قل لى: ما هى الآيات التى وجدتها متشابهة والحروف فيها مختلفة؟

قال وهو يفرد الورقة أمامه: فى سورة البقرة: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ [البقرة: ١٣٦]

وفى سورة آل عمران: ﴿**قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ٨٤]

فالآن ألا ترى كيف تتشابه الآيتان حتى لتتطابقا. بل تكاد تكون آية واحدة هى هى، فلماذا هنا ﴿**إِلَيْنَا**﴾ وهناك ﴿**عَلَيْنَا**﴾؟

قلت: فافتح المصحف واقرأ الآية التى بعد آية البقرة.

قال وهو يفتح المصحف: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ [البقرة: ١٣٧]

قلت: فالأمر فى الآية ﴿قُولُوا آمَنَّا﴾ هو أمر بتبليغ الرسالة وحمل الأمانة؟

قال وهو يتأمل فى الآيات: نعم. لأن الآية بعدها تدل على وصول الرسالة وتبليغها ليؤمن من يؤمن ويتولى من يتولى.

قلت: وأيضاً لأن الآية قبلها ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة: ١٣٥] فهناك باطل يقال وبهتان يُدَّعى، فجاء أمر بنفى هذا الباطل والبهتان ثم توضيح الحق وتبليغه ليؤمن من يؤمن ويكفر من يكفر.

قال: هذا صحيح.

قلت: إذا فهذا مقام تكليف وأمانة تُستودع ورسالة تُستامن.

قال: بدأت الصورة تتضح أمامى لكنها غائمة.

قلت: فلأنه تكليف وأمر يتبعه جهد ومسؤولية تحمل قال لهم: لقد وصلت الرسالة إليكم أى: تامة كاملة وأصبح منتهاها إليكم.

قال: وما دامت وصلت إليكم فقد كُلِّفتم بها وجاء دوركم فى تبليغها كما وصلت الرسالة إلى من قبلكم وكلفوا بها.

قلت: تماماً. فالأمر فى ﴿إِلَيْنَا﴾ نظر للرسالة من جهة من كلفوا بحملها وأرسل إليهم.

قال: فماذا عن آية آل عمران؟

قلت: تماماً كما فعلنا مع آية البقرة. فانظر واقرأ الآية بعدها.

قال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]

قلت: إذاً فهناك أديان باطلة يميل عن الإسلام إليها قوم زائغون خاسرون.

قال: نعم، وتؤكده الآية قبلها فى استنكار وتوبيخ ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]

قلت: فما زلت لا تفهم لماذا لو جاءت «إلى» لكانت نشازاً فى مكان هو قرار «على».

قال: بدأت أفهم قليلاً، فهناك أديان مدعاة تستوى جميعاً فى مصدرها الكاذب وبطلان حقيقتها. وألمح «على» فى الأمر بها تعطى إشارة إلى علو الإسلام بمصدره وحقيقته.

قلت: فلذلك أمره عليه الصلاة والسلام أن يقول عنه وعن أمته: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [آل عمران: ٨٤].

ليعلن لهم سفل أديانهم الباطلة وعلوية هذا الدين بمجيئه من أعلى من السماء ممن ﴿لَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]، فبهذا امتاز واستحق الاتباع، وبهذا يعلو النبى عليه الصلاة والسلام وأمته فوق دعاة الأديان. فكأنه يقول لهم: كلها سواء حذوك النعل بالنعل إلا هذا الدين الذى جاء من أعلى.

قال: فلو جاءت «إلى» لما بان تميز هذا الدين بمصدره العلوى فى موضع تتبارى فيه الأديان ويُخدع بباطلها من يخدع.

قلت: فهذا مقام إعلان لشرف هذا الدين على غيره من الأديان وتشريف لمن أنزل عليه باتصال السماء به ورعايتها لأمته.

أرأيت إلى النسيج القرآنى المتآلف المتجانس المتشابك فى كل خيوطه، فلو نزعت خيطاً واحداً لتهلهل النسيج واختل ميزانه الدقيق.

قال: لا أعرف كيف أصف هذا التقدير الخارق. إن كل حرف فى الآية والآيات التى هو فيها مع بعض التأمل يبدو وكأنه لا يمكن أن يكون إلا كما هو. وكأن الحرف قدر الآية المحكم والآية قضاؤه المبرم.

قلت : فذلك تفصيل الحكيم الخبير. فإنك لو أتيت «بإلى» مكان «على» أو العكس لجعلت الحرف نشازاً فى موضعه تعرفه أذن العربى الخالص وعقل المتأمل الفاحص كما تعرف الأذن اليقظة نشاز النغمة فى مقطوعتها.

ولو جعلتها كلها «إلى» فقط أو «على» فقط لما كان للآيات معنى إلا تكرارها الذى لا فائدة فيه، ولما كان القرآن مشعاً ببريق أخاذ فى كل آية غير الأخرى.

قال : أتعرف وأنا أتأمل معك هذه الحروف فى كل آياتها ليأخذنى العجب كل مذهب كيف واتت هؤلاء العرب الجراة أن ينسبوا القرآن لمحمد عليه الصلاة والسلام وهو الأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب ويلقى القرآن شفاهة فلا يمتلك الوقت ولا القدرة على الكتابة ثم تحبير ما كتب واختيار الحروف له والموازنة بينه.

قلت : ولو كان يمتلك هذه القدرة أترى بشراً يستطيع أن يمتلك هذه الموازنة والقدرة على الاختيار الدقيق فى كل جملة يكتبها على تباعد الزمن ما بين الجمل والنجوم، واختلاف معانيها، واتساقها وانسجامها من أولها إلى آخرها؟.

والآن أظنك اكتفيت وتريد النوم .....

وما إن نطقت حتى أسرع لالتقاط ورقته وفردها أمامه مرة أخرى وقال : الوقت لم يتأخر بعد وما زال عندى ما أريد أن أفهمه. ثم ابتسم قائلاً : أم تريد الهروب؟

ثم نظر إلى الورقة يتأملها وقال : إن هذه الآيات لغريبة؟!

قلت : أى آيات هذه الغريبة؟

قال : ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٣٧]

﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ**

﴿هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦]

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩]

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٤٢]

سكت فقلت: مالك سكت؟!

قال: إن هذه الآيات بها عبارة واحدة تكاد تكون هى هى ﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا﴾.

قلت: وماذا فى ذلك؟

قال: ليس فيه شئ، ولكن الذى فيه شئ وأشياء لا أفهمها أن تأتى أربع آيات بالترتيب نفسه والأمر نفسه والحروف نفسها، ثم تأتى آية واحدة وحيدة فتباين أخواتها وتقف وحدها منفردة ولا أفهم سبباً لانفرادها.

قلت: فما هى هذه الآية؟

قال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾

[الأنعام: ١١]

فإنى لا أفهم لماذا كانت الآيات الأربع ﴿سِيرُوا ..... فَانظُرُوا﴾ وهذه وحدها ﴿سِيرُوا ..... ثُمَّ انظُرُوا﴾، ثم لماذا كانت هذه واحدة وتلك أربع؟.

قلت: واحدة واحدة. فلنتأمل أولا الفرق بين ﴿فَ﴾ و ﴿ثُمَّ﴾.

قال: فهذه يسيرة لا تحتاج إلى كثير تأمل. الفاء تعطى معنى الترتيب الفورى بلا مهلة ولا فاصل زمنى أما ثم فإنها تعطى معنى الترتيب مع المهلة وفاصل الزمن بين الأمرين.

فإذا قلت جاء محمد فعلى فمعناها أن علياً جاء بعد محمد مباشرة. أما إذا قلت جاء محمد ثم على فمعناها أن علياً جاء بعد محمد بزمن.

قلت: فلسنا أيها الأستاذ فى العربية البارع بحاجة لأكثر من هذا.

قال: فإنى لا أفهم بعدُ شيئاً أفرق به بين معنى الأمر بحرف هنا ومعنى الأمر بآخر هناك.

قلت: حسب ما تعرف عن الفاء، ما الذى تفهمه من ﴿ **فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا** ﴾؟

قال: لا أفهم شيئاً غير أنه أمر بالنظر بعد السير مباشرة أو معه.

قلت: فهو أمر بالسير والنظر معاً فى وقت واحد مع تقدم السير لأنه لا نظر إلا به. فماذا عن ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ** ﴾؟

قال وهو يعبث بشعره: هو أمر بالسير والتمهل والأناة فى النظر.

ومع ذلك فما زلت لا أفهم ما الفرق بين الأمر بالنظر مع السير والأمر بالنظر بعد التمهل والأناة. ففى كل الأحوال هو نظر واعتبار.

قلت: ولكن ليس كل نظر واعتبار ككل نظر واعتبار.

قال: لا تحيرنى.

قلت: انظر يا عزيزى. إن الأمر ﴿ **سِيرُوا ..... فانظُرُوا** ﴾ هو كما قلت أنت أمر بالنظر مع السير، فهو نظر فى أثناء السير والحركة لا تمهل فيه ولا مهلة للاستقراء، وإنما هو نظر لرؤية آثار الأمم المعاندة المكذبة والاعتبار الآنى بها وقت رؤيتها والوقوف أمامها.

فكأنه عز وجل يقول: سيروا فى الأرض، فعند سيركم سترون آثار الأمم السابقة، فانظروا إليها لتروا فيها بقاءها وذهاب من بنوها، وتعتبروا بشهادتها بنفسها على من كذبوا من أهلها، ولتتعظوا بمصارعهم وهلكتهم بعد علوهم وتجبرهم.

قال: فكأنه أمر بالسياحة فى الأرض والوقوف أمام الآثار والبقايا للاعتبار والعظة.

قلت: تماماً.

قال: فماذا عن ﴿ثُمَّ﴾؟

قلت: الأمر هنا وكما قلت أنت أيضاً هو أمر بالسير، لكنه هذه المرة أمر بالسير الطويل المتأمل وجمع الشواهد والقرائن والتنقيب عن مصارع السابقين والبحث عن آثارهم، ثم تأملها واستقرائها معا بصبر ودقة لمعرفة سنة الله فى خلقه وما يحكم حركتهم ومصارعهم من قانون لله لا يختلف، والوصول إلى سر ارتقائهم وإلى أسباب انكسارهم وفنائهم.

قال وهو يسترخى فى مقعده: فكأنه أمر بالسير للعلم والتنقيب، ثم الاستقراء والمقارنة والتأمل والفحص والخروج بمنهج جامع.

قلت: وهذا الاستقراء والمقارنة والمنهج الجامع لا يمكن أن يكون عند السير نفسه، بل بعد السير طويلاً وفى أماكن متباعدة ورؤية آثار أقوام متعددة. فهناك زمن طويل بين السير والنظر للخروج بنتيجة من هذا السير.

قال: فجاءت ﴿ثُمَّ﴾ التى تدل على المهلة والأناة لتكون هى الإشارة إلى هذا الزمان الطويل.

قلت: نعم، لتدل على هذه المهلة والأناة بمعناها، وبزيادة حروفها عن الفاء، وبزيادة زمن تلاوتها، بل ولتشير إلى الدقة والضبط المطلوب فى هذا السير بحاجة القارئ إلى التمهل والدقة لإخراج الثاء من مكانها الصحيح، وتشير إلى زمن التأمل والمهلة الذى يحتاجه بغنة الميم المشددة التى تُلزم القارئ التمهل والأناة عندها.

أرأيت إلى بديع إحكام القرآن؟ فلو جاءت الفاء الخاطفة السريعة فى هذا الأمر لكانت الآيات كلها واحدة، ولكان الأمر فيها جميعاً لعوام الناس، ولما كان

للعلماء المنقبين الفاحصين الذين إن ساروا فنظروا لم يفرق نظرهم عن نظر العامة كثيرا – لما كان لهم نصيب من الأمر القرآني. ولو جاءت كلها بـ ﴿ ثُمَّ ﴾ لكان الأمر للعلماء الأثبات والمدققين والثقاة، ولما كان لعامة الناس نصيب من أمر القرآن لمشقته وثقله إلا على أهله وخاصته. ولو كان الأمر بهذه أو تلك في كل الآيات لما كان القرآن هو القرآن.

قال: ياه! إن هذا التناسق لبديع وهذا الإحكام ....

ثم قطع كلامه فجاة وقال: الآن فهمت.

قلت: فهمت ماذا؟

قال: فهمت لماذا جاء الأمر بالفاء في أربع آيات وبـ ﴿ ثُمَّ ﴾ في آية واحدة.

فالأمر ﴿ سِيرُوا ..... فانظُرُوا ﴾ للعامة وآحاد الناس وهم كثير. أما العلماء وأصحاب الاستقراء والعكوف والتأمل الطويل والمنهج المدقق فقليل. لذا أمرهم بالسير ثم النظر مرة واحدة.

قلت: بل هناك سر آخر في تكرار الأمر بالفاء وكونه مرة واحدة بـ ﴿ ثُمَّ ﴾، فالعامة شانها الغفلة وآحاد الناس يرون وينسون، فهم يحتاجون للتذكير بالسير وتكرار النظر مع السير حتى لا تفوتهم العبرة بالغفلة.

أما الخاصة فالسير دأبهم وديدنهم، وسيرهم طويل متأمل، فيغنيهم عن تكرار الأمر بالسير طوله وصبرهم، وعن تكرار الأمر بالنظر دقته وعكوفهم الكامن في ﴿ ثُمَّ ﴾.

قال وكأنه يحدث نفسه:

الفاء	﴿ ثمَّ ﴾
نظر عابر	ونظر متأمل
أربع مرات	ومرة واحدة
عامـــة	وخاصـة

ثم انتبه من شروده ووضع كفيه على جبهته واستلقى إلى الخلف مغمضاً عينيه وهو يهمس: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود: ١]

* * *

قال فى اندفاع وحدة: كيف طاوعتهم أنفسهم؟ كيف؟

قلت: اجلس واهدأ قليلا وقل لى: ماذا حدث ومن هم هؤلاء؟

قال: العلماء.

قلت: العلماء؟!

قال: كيف طاوعتهم عقولهم ونفوسهم أن يقولوا أن هذا الإحكام الرائع فيه حروف زائدة؟ زائدة؟! هذا النسيج المتآلف يمكن أن يكون فيه حروف زائدة؟!

قلت: هدأ من روعك ولا تظلم العلماء.

قال: أظلمهم؟! ماذا لو وقع أحد على هذا الكلام فبث الشك فى نفسه وتوهم أن فى القرآن حروفاً للحشو ولا فائدة فيها؟

قلت: ومع ذلك فالعلماء لم يخطئوا.

قال: لم يخطئوا؟! هل تريد أن تقول لى أنت أيضاً إن فى القرآن حروفاً زائدة وبلا فائدة؟

قلت: لا. فأنا لم أقصد ذلك، وهم أيضا لم يقصدوه، وهم الذين أفنوا أعمارهم وأذهبوا أبصارهم فى خدمة المعجزة الخالدة.

لكن هم لم يخطئوا لأنهم فى سبيل بيان هذه المعجزة وتقريبها للناس وفهم أسرارها وضعوا العلوم واستنبطوا القواعد لتكون ضابطاً للفهم ومعيناً على الرؤية.

قال: فإذا كانوا قد وضعوا القواعد، أفلم يجدوا لهذه الحروف قاعدة إلا أن يجعلوها زائدة؟

قلت: الأمر ليس يسيراً كما يبدو لأول وهلة. فالقرآن معجزة. والمعجزة لو كانت تسير على قواعد مطردة لا تتخلف ويحتويها قانون يضعه البشر لما كانت معجزة.

قال: فكيف إذاً يكون القرآن معجزة العقل؟

قلت: هو معجزة العقل لأن العقل يستطيع أن يتدبره فيصل إلى سره ومكمن إعجازه، لكنه لا يقدر أبداً أن يضع له نسقاً ثابتاً وقواعد جامدة صماء، وإلا لسار عليها كل أحد وأمكنه محاكاتها. فالقواعد تُضبط على القرآن ولا يقيد بها القرآن.

بل القرآن يضع لك الحرف في موضع ليعطيك من المعنى ما يتهدم بإزالته، ويحذفه من موضع آخر لاحتوائه من المعنى ما يغنى عن هذا الحرف. وقد تستقرئ آياته فتراها على قاعدة واحدة في حرف ثم يغيرها في آية أو اثنتين. ولو بحثت وتأملت لاهتديت إلى السر في ذلك ولعرفت أن المعنى لا يكون محكماً بلا خلل ولا طول إلا هكذا.

قال: فما السر في هذه الحروف التي يقولون إنها زائدة؟

قلت: هي ليست زائدة. وإنما العلماء جعلوها زائدة حسب قواعد النحو التي وضعوها لتيسير التعليم والتعلم.

قال: إذاً هي ليست زائدة في معناها؟

قلت: بلى. فكل حرف منها ركن ركين في آيته لو نزعته لتصدع بنيانها واهتز باقي أركانها.

قال: فلماذا يقولون إن قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] معناه ليس مثله شئ والكاف زائدة؟ فإذا كانت هذه كتلك والكاف زائدة كما يقولون فما فائدة وجودها؟

قلت: فائدتها أنها حمى مقام الألوهية والحاجز بينه وبين الخلق.

قال: حماه؟! كيف؟

قلت: لو قلت: «ليس مثله شئ» لنفيت أن يكون لله فى كمال صفاته وطلاقه قدرته وتمام علمه وإحاطته مثل، ولكن ربما توهم متوهم أن يكون هناك من يقترب منه عز وجل فى هذه الصفات وإن لم يماثلها تمام المماثلة. فجاءت الكاف لتنفى المثل عن الله عز وجل فى صفاته وتحجز العقل أن يتوهم وجود مقارب له فى هذه الصفات وإن لم تكن هى بعينها.

قال: فهذه الكاف والتى يقال إنها زائدة هى لبيان الفرق الهائل والبون الشاسع بين مقام الألوهية ومقام الخلق فلا تقترب صفاتهم من صفاته بله تماثلها. أى تنزيه صفاته عز وجل.

قلت: هذه واحدة.

قال: والثانية.

قلت: لو قلت ليس مثله شئ لوضعت مقام الألوهية على قدم المساواة مع مقام الخلق، لأن المقارنة لا تكون إلا بين متشابهين والتفاضل لا يكون إلا بين متقاربين يُتوهم اختلاط الأمر بينهما، ولو كان لتعظيم أحدهما على الآخر. فلو قرنت مقام الألوهية بمقام الخلق دون هذه الكاف الحاجزة لنزلت بمقام الألوهية من حيث أردت تعظيمه، ولماثلته عز وجل بخلقه من حيث أردت نفى هذه المماثلة.

قال: آه! كما يقول الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

قلت: وكذلك ينقص مقام الألوهية لو ذكرته إلى جوار مقام الخلق ولو من باب تعظيم الخالق على الخلق. فبهذه الكاف تكون المماثلة والمقارنة بعيداً عن مقام الألوهية بل خارج سورها وحرمها.

قال: فالكاف هى هذا الحرم الذى جاء ليحصن مقام الألوهية ويجعل الخلق دونه وتحت أسواره.

قلت : فهذه الثانية .

وأما الثالثة .

قال : أما زال هناك ثالثة ؟!

قلت : ألم أقل لك إن الحرف فى موضعه كالجوهرة يبرق من كل وجه ؟

ثالثا : الإله الحق هو الأزلى الأبدى الذى خلق وأوجد ، وهو واجب الوجود فى ذاته وكل خلقه مفتقر إليه . وواجب الوجود لا يتوقف وجوده على شئ ولا علة ، ولو وجد منه اثنان لفقد الوجوب والذاتية وصار ممكناً لأن الخلق لا يتوقف عليه وحده ، ولو صار ممكن الوجود لماثل خلقه وانتفت عنه الألوهية .

قال : وما علاقة ذلك كله بالكاف ؟

قلت : الكاف جاءت لتقول : إن مقام الألوهية الحقة لا يكون له مثل . فلو كان له مثل لصار ممكناً ، ولو صار ممكناً لما كان إلهاً حقاً . ولكن لأنه إله حق فهو واجب الوجود ، ولأنه واجب الوجود فلا مثل له . ولأنه يستحيل أن يكون له مثل فلا بد من الكاف لتعرف بها أن الألوهية والمثلية نقيضان لا يجتمعان .

قال : إن الحرف فى موضعه فى القرآن يبدو لأول وهلة فريد المعنى وما إن يتأمله المرء حتى يعطى من المعانى كألوان الطيف .

قلت : والإعجاز أن المعانى التى تخرج لك كلما تأملت الحرف من وجه تتعاضد وتترافد ثم تتحد كاندماج ألوان الطيف لتعطيك من الحرف فى موضعه ضوء مبيناً ونوراً متلألأ .

قال : كأن الحرف ينبوع من الضوء يتفجر بألوان من المعانى .

قلت : وألوانها تتداخل لتعطيك نوراً فى البصيرة وبهجة فى النفس وراحة فى العقل .

قال : انتظر قبل أن أنسى ! هناك حرف آخر قرأت أنه زائد .

قلت : ما هو ؟

قال: الباء في قوله تعالى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]؟ وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] فما زلت أذكر أننا في المدارس كنا نتعلمها ونكتبها في فصول الدرس وفي الامتحانات أنها زائدة.

قلت: فما رأيك فيها الآن؟

قال: إنني لا أثق إلا بالقرآن. ولا أرى الآن من يقول عنها إنها زائدة إلا أنه هو الناقص.

قلت ضاحكاً: ما زلت كما أنت حاداً حاسماً في يقينك كما أنت في شكك.

قال: ومع ثقتي هذه فإنني لا أبغي بالفهم بديلاً. فهو يمنحني متعة وجمالاً، ويزيد القرآن في عقلي ونفسي عظمة وجلالاً.

قلت: فإذاً انزع هذه الباء واجعل الكلام بدونها لتعرف سرها.

قال: أليس الله أعلم بالشاكرين؟ أليس الله كافياً عبده؟

قلت: فلو تأملت ما قلت الآن لوجدت أنه دون هذه الباء لكان أول ما يرد على عقل السامع أو القارئ أن هذا سؤال يُسأل ويُطلب له إجابة. فهو سؤال واستفهام كأي سؤال واستفهام.

ولو سألت هذا السؤال دون الباء لعربي لما كان منه إلا أن يرد عليك بالنفي أو الإثبات ليجيبك عما سألت عنه. وأبلغ منه من إذا سمعك تلقى عليه هذا السؤال نكرك واستنكر سؤالك؛ لأنك تسأل وتستفهم عما لا يُسأل عنه. فكيف يحتمل أن لا يكون أعلم بالشاكرين وكافيا عبده - حتى تسأل وتستفهم - وهو الله عز وجل؟!

قال: فهمت، فالباء جاءت لكي تصرف العقل عن أن يفهم أن هذا استفهام وتساؤل إلى معنى آخر مخبوء في الآية.

قلت: تماماً. فإذا قرأت الآية التي جاءت فيها هذه الباء لعرفت هذا المعنى الجديد الذي جاءت لتشير إليه.

قال وهو ينظر إلى الورقة الأولى : ﴿ **وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ** ﴾ [الأنعام : ٥٣] .

والثانية : ﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** ﴾ [الزمر : ٣٦]

قلت : ففي الآية الأولى شك فى علم الله وتشكيك فى حكمته وعطائه ﴿ **أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا** ﴾ .

قال : وأحس فيها سخرية واستهزاء .

قلت : وفي الآية الثانية شك وتشكيك فى قدرة الله ونصرة نبيه : ﴿ **وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ** ﴾ .

قال : لذلك كان رد وتعقيب القرآن الحاسم الجازم الذى يزيل الشك ويقطع التشكيك ويمنح اليقين فى ثقة وتحد .

قلت : فهذه هى مهمة الباء التى تعطى هذا الحسم والجزم والثقة والشدة فى الرد، وبها يكون الرد على قدر الشك وجلال من يشككون فى قدرته، وبدونها يكون الرد ليناً مائعاً يحتمل الإثبات ويحتمل الاستفهام . وعندها يكون الميزان مختلاً بين التهمة ووقاحتها وبين الرد ولينه .

قال : فالحسم على قدر الشك والرد على قدر التهمة .

قلت : فهذه الباء هى التى يتزن بها الميزان . ولو تأملت هذه الباء المكسورة فى نطقها لرأيتها تخرج والشفتان مضمومتين مزمومتين وعضلات الخد تتوحد لتدفعها من خلال الشفاه، فتعطيك إحساس الحسم والجزم بصوتها وهيئة نطقها بعد أن أعطتك إياه بدلالتها ومعناها .

ابتسم سعيداً ثم قال : الآن اطمأن قلبى .

* * *

قلت: ما المخبوء – يا ترى – فى عينيك؟

قال: عتاب.

قلت: فالعتاب رسول النفوس المتآلفة. فاجلس وقل لى: ماذا حدث؟ وعلام العتاب؟

قال: لقد رأيت من عجائب حروف القرآن ما جعلنى أتشوق لمعرفة أسرار كلماته، وأقول لنفسى: إذا كانت الحروف هى لبنة القرآن الأولى وفيها من الأسرار ما فيها، فلا بد أن تكون الكلمات ينبوعاً من الأسرار والإعجاز المتدفق.

قلت: وإنها لكذلك.

قال: وقبل أن أشرع فى القراءة والتأمل فى الكلمات أخذت أراجع ما كتبته.

قلت: وماذا وجدت يجعلك عاتباً على؟

قال: إنك لتعطينى نوراً ثم تطفئه، وتقول الكلام ولا تتمه وكأنك تضن به.

ولقد تأملت ما كتبت فرأيتك لا تخوض فى حديث حتى أكون أنا البادئ به، ولا تسير فى طريق إلا بعد أن أشير لك إليه.

قلت: كل هذا؟! لو تأملت بعناية لرأيتك أنت الذى لا تترك لى فرصة للاختيار، وكلما جئتنى أو أتيتك انهلت على بأوراقك وتأملاتك. وإن ما تختاره وتتأمل فيه ليمتعنى ويروق لى. وإنك لتظلمنى.

قال: انتظر أيها المحامى البارع قبل أن تتفلت منى وأصبح أنا المطلوب لا الطالب. ألم تقل لى من قبل إن إعجاز القرآن فى الحرف ليكون بحذفه فيزيد حذفه المعنى إحكاماً والنظم جمالاً وأثره اكتمالاً؟

قلت: بلى قلت هذا.

قال: فلا أعرف كيف مرت على هذه العبارة ولم أنتبه إليها من قبل.

قلت : فها قد انتبهت وذكرتنى . ويمكننا أن نستدرك ما فات ونعود إليه .

قال : " فكيف يكون الإعجاز فى حذف الحرف؟ وما حذف حرف إلا أنه غير موجود، فكيف يكون إعجازه فى عدم وجوده؟

قلت : تماماً كما يكون إحكام البناء بفضائه كما هو بلبناته، وبتنسيق مساحاته كما هو بتشييد أركانه . فالعبارة تنظر إليها فى غير القرآن فتراها محكمة المعنى جميلة المبنى تامة كاملة لا ينقصها شئ، ثم ترى القرآن حذف الحرف فإذا بالمعنى يزداد إحكاماً والمبنى جمالاً مع لطيف الإشارة وبديع الدلالة .

قال : شوقتنى . فدعك من هذا الكلام ودلنى على هذا الحرف الذى يكون الإعجاز فى حذفه .

قلت : ﴿ وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾

[الضحى : ١-٣]

قال : فأين هو الحرف؟

قلت : كاف قلاك . فقل لى : لو كانت عبارة كهذه فى كلام البشر وتسير على نسق حديثهم وتتوخى إحكام معانيهم كيف كانت تكون؟ ﴿ وَمَا قَلَىٰ ﴾ أم « وما قلاك »؟

قال متفكراً : المعتاد أن نقول : ما ودعك وما قلاك حتى تتناسق الضمائر وتعود على شخص واحد .

قلت : فهذا إعجاز القرآن فى الحرف بحذفه .

قال : أنا معك أن حذف الكاف يزيد عبارة القرآن جمالاً وروحاً عن عبارة البشر . لكن أحسب هذا إنما يكون لتشابه الفاصلة مع الحذف : ﴿ وَالضُّحَىٰ ..... سَجَىٰ ..... قَلَىٰ ﴾، وما تعطيه من إيقاع موسيقى يختل بوجود هذه الكاف .

قلت: هذا صحيح. ولكن الإعجاز ليس فقط فى أن حذف الحرف يزيد الإيقاع تناسقاً وجمالاً، وإنما لأنه أيضاً يزيد المعنى روعة وكمالاً.

فيكون حذف الحرف جمالاً فى الإيقاع، وعلواً فى المعنى، وتجانساً فى الفاصلة، وتناسقاً فى النغم، ويكون إعجازه هو كل ذلك. وهو عدم وجوده فى مكان لا يرد على ذهن البشر فيه إلا وجوده.

قال: فما هو المعنى الذى يزيد كمالاً وعلواً بحذف الكاف؟

قلت: أتعرف ما هو القلى؟

قال: البغض والكره.

قلت: فلذلك حذف القرآن الكاف التى هى خطاب النبى عليه الصلاة والسلام. فلا يكون هناك بغض من الله لنبيه المصطفى المختار ولو على سبيل النفى، ولا تكون إشارة ثَم إلى كره من الله لخير خلقه ولو لاستبعاده.

قال: ﷺ. فكأن الله عز وجل يحنو عليه ويرفق به فلا يشير له بكره ولا بغض ولو من بعيد. إنى لأحس مزيجاً من الراحة والسمو والتحليق فى الملكوت يغمرنى بهذا الحنان وهذا الرفق المتناهى.

قلت: وفى هذه الكاف جمال آخر.

فإن هذه الآيات ما جاءت إلا لتبث الطمأنينة فى قلب النبى عليه الصلاة والسلام وتنزل السكينة عليه؛ أن ربه لم يتركه ولم يبغضه كما قال له المشركون حين تأخر عنه الوحى.

قال: أعلم هذا.

قلت: فلو قال ما ودعك وما قلاك لنفى أن يكون عز وجل أبغضه وكرهه، ولكن لم يثبت له الحب والود والعناية.

قال: فلو جاءت هذه الكاف لذهب الكره والبغض وما جاء الحب والود ولا العناية.

قلت : فتكون الكاف فى موضعها حينئذ متنافرة مع الحنان والرفق فى ودعك قبلها، ومع العطاء حتى الرضا بعدها، ويكون وجودها جالباً للفزع إلى نفسه عليه الصلاة والسلام بدل الطمانينة، والخوف محل السكينة؛ أن تكون هذه هى منتهى درجته عند ربه : عدم البغض لا الحب، وعدم الترك لا الرعاية والعناية . فلو لم يحذف القرآن هذه الكاف من آياته لكانت فزعاً فى ثوب طمانينة وخوفاً فى لباس سكينة .

قال : إن هذه الدقة البالغة لتذهلنى وأحس عقلى يكاد يذهب وأنا أتأملها وأتأمل كيف يكون الحرف فى مكانه وكيف لا يكون، وبأى ميزان معجز فى مكان وُضع وفى آخر رُفع .

قلت : إنه الميزان الإلهى .

قال : إن ميزان الذهب والدر إلى جواره لثقيل ثقيل!!

* * *